فضل اللغة العربية في القرآن والسنة وآثار السلف

ويليه

أقوال مأثورة في شرف العربية

للكاتبين

- عصام زيدان
- محمد بلاسي



فضل اللغة العربية
في القرآن والسنة وآثار السلف

Judul Tulisan : **Keutamaan Bhs. Arab Dalam al-Qur’an, Hadits Dan Atsar Salaf**

Penulis : Ishom Zaidan dan Muhammad Balasyi

Cetakan : Pertama, 1 Zul Qaidah 1445H

Distribusi : Untuk kalangan sendiri

Penerbit : **PAQUSATTA PUBLISHING**

تقديم

الحمد لله الذي جعل اللغة العربية لغة القرآن ولغة أهل الجنة، والصلاة والسلام على النبي الأمي أفصح الناس نطقا بلغة الضاد، وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

من شدة حب لهذه اللغة، حرصت على جمع ما يتعلق بآدابها، شعرا ونثرا ومقالة وأقوالا من جهابذتها. فوجدت مقالاتين رائعتين جديرتين نشرهما للإفادة من الكاتبين الكريمين، الأستاذ عصام زيدان والأستاذ محمد بلاشي في مجلة البرهان. فأرى – لا والله لأجل البيع والشراء – ولكن لأجل الفوائد خاصة لعشاق لغة الضاد أن أضمهما في كتيبٍ وأنشرهما جماهيريةً.

وأنا – بهذا العمل الجريئ دون الاستئذان المباشـــر من صـــاحبيهما ومن مجلـة البرهـان – أعتـذركم ألف الف اعتـذارٍ وأطلب منكم مسامحتكم ورضاكم، وأدعو الله لكم أن يجعلهـا خيرا كثيرا في ميزان حسناتكم.

والله المســتعان وعليه التكلان والصـــلاة والسـلام على الصـطفى محمد والحمد لله رب العالمين.

سنجاتا كوتاي تيمور – كاليمانتن الشرقية

٤ ذوالحجة ١٤٤٥هـ

كياهي الحاج حميم طهاري بن صفريدي

(راعي باقوستا)

فضل اللغة العربية في القرآن والسنة وآثار السلف

لعصام زيدان[1]

حظيت اللغة العربية بشرفٍ عظيمٍ؛ إذ تنزَّل بها الكتاب الكريم، كتاب رب العالمين، على الرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي كان أفصح البشر لساناً، فزاد من شرف اللغة العربية أنها كانت لغته صلى الله عليه وسلم التي مكَّنه الله - عز وجل - منها أيما تمكُّن، وكان صحابته الكرام وسلف الأمة - رضوان الله عليهم - على النهج ذاته في العناية باللغة العربية تكريماً وعناية وتشريفاً.

[1] https://albayan.co.uk/MGZarticle2.aspx?id=7820

▪ فضــــل اللغــة العربية في القرآن الكريم

وعنـدمـا نتـأمـل عنـايـة القرآن الكريم بـاللغـة العربيـة نجـد عـدة آيـات تنص على نزول القرآن عربياً، وهو شـرفٌ أي شــــرفٍ لهذه اللغة، أن تكون اللغة التي اصـــطفـاهـا الله - عز وجـل - لمخاطبة عبادة، حيث وُصــف القرآن بكونه عربياً في ست آيات، وهي قوله تعالى:

{آلــر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْــمُبِينِ 1 إِنَّا أَنزَلْنَــاهُ قُرْآنًــا عَرَبِيًّــا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [يوسف: ١، ٢].

{وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا} [طه: 113] .

{وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ 27 قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الزمر: 27، 28]

{حم» 1 تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ 2 كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [فصلت: ١ - ٣].

{حم» 1 وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ 2 إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ 3 وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} [الزخرف: ١ - ٤].

{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} [الشورى: ٧].

كما جاء وصفه باللسان العربي في ثلاث آيات، وهي قوله تعالى:

{قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ 102 وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} [النحل: 102، 103].

{وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ

الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ} [الأحقاف: 12].

{وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ 192 نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ 193 عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ 194 بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ 195وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ 196 أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ 197 وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ 198 فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: 192 - 199]

وجاء تفصيل كونه عربياً وليس أعجمياً في آية واحدة، وهي قوله تعالى:

{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ} [فصلت: ٤٤].

وجاء وصفه بالحكم العربي في آية واحدة، وهي قوله تعالى:

{وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ} [الرعد: 37].

والحاصل من ذلك أن مجموع ما ورد من ألفاظ العربية في وصف القرآن إحدى عشر آية تدل على شرف اللغة

العربيـة، دلالـة لا ينكرها إلا مكابر أو جاحد.

قال الفراء: «وجدنا للغة العرب فضلاً على لغة جميع الأمم اختصاصاً مـــن الله تعـالى وكرامـة أكرمهم بهـا، ومن خصـائصـها أنه يوجد فيها من الإيجاز ما لا يوجد في غيرها من اللغات»[1].

ولفظة عربي ما جاءت في هذه الأيات الكريمات صـــفة لجنس من البشـــر، وإنمـا للكتـاب المنزل من الله تعـالى، وهذا لـه بُعدُه ودلالته؛ «فعربية القرآن إنمـا هي عربيـة منهج إبـانـة، ولذا كثر في هـذه الأيـات قولـه لعلكم تعقلون، لعلهم يتقون، لعلهم يتـذكرون، وهـذا كلـه إنمـا يكون من منهـاج الإبانة على معانيه ومقاصده ومغازيه»[2].

ودلالتـه أن العربيـة لغـة تفوق غيرهـا من اللغات في الفصــاحة والبيان، قال السعدي: «يخبر تعالى أن آيات القرآن هي {آيَاتُ الْكِتَابِ الْـمُبِينِ} [الشعراء: ٢] أي: البيِّن الواضـــحـــة ألفـاظـه ومعـانيـه. ومن بيـانـه وإيضـــاحـه: أنـه أنزله باللسان العربي، أشرف الألسنة، وأبينها»[3].

وقـال ابن كثير معللاً اختيـار العربيـة لغـة للقرآن الكريم: «وذلـك لأن لغـة الـعـرب أفصـــح الـلـغـات وأبـيـنـهـا وأوسـعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بـالنفوس؛ فلهـذا أنزل أشـــرف الكتب بأشرف اللغات»[4].

كما أن «اختيار الله للعربية، أو اللسان العربي، ليكون أداة التوصيل، ووسيلة

الإبانة، ووعاء التفكير للرسالة الخاتمة الخالدة... قضية ذات أبعاد لغوية، وثقافية، وعلمية، وحضارية، حيث لم يعد ينكر اليوم، علاقة التعبير بالتفكير، ودور التعبير في التفكير والإبداع الأدبي والعلمي، والمحاكمات العقلية... لذلك فمجرد اختيار العربية لتكون لغة التنزيل والإبانة والتوصيل... يعني امتلاكها هذه الأبعاد جميعاً»[5].

ولذا فإن التبحر في هذه اللغة هو السبيل لإدراك معاني الكتاب، وهو شرف كبير لهذه اللغة أن جعلها الله - عز وجل - مفتاح الوصول لمعاني الكتاب العزيز ومراميه، قال الفارابي: «القرآن كلام الله وتنزيله، فَصَّل فيه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم،

مما يـأتون ويَذَرُون، ولا ســـبيل إلـى علمـه وإدراك معـانيـه إلا بـالتبحر في علم هذه اللغة››[6].

بل هـــي السبيل لضبط الدين بالكليـــة كما قـــال ابن تيمية: ‹‹إنَّ الله لما أنزل كتابَه باللسـان العربي، وجعل رسـولَه مبلِّغاً عنـه الكتـاب والحكمـة بلســـانـه العربي، وجعل السَّابقين إلى هذا الدين متكلِّمين به، ولم يكن سبيل إلى ضبط الدِّينِ ومعرفته إلا بضبط هذا اللسـان، صارت معرفته من الدِّين، وأقرب إلى إقامةِ شعائر الدين[7].

▪ فضـــل اللغــة العربية في السنة النبوية

وكمـا أن للغـة العربيـة تلـك المنزلـة الرفيعة في القرآن الكريم، فإن منزلتها في الســـنة النبويـة، لا تقل عن ذلك بحـال، وليس أصــــدق على ذلك من قولـه صـــلى الله عليه وســـلم وفعله وسمته وهديه في العناية بهذه اللغة.

عن عبد الله بن عمرو رضـــي الله عنه قال: «خرج علينا رسول الله صلى الله عليـه وســـلم يوماً كالمودِّع فقال: أنا محمد النبي الأمي (قاله ثلاث مرات) ولا نبي بعـدي، أوتيـت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه»[8].

وقريباً منه ما جاء عن أبي موسى الأشعري عبد الله بن قيس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أُعطِيتُ فَواتِحَ الكَلِمِ وخَواتِمَه. قُلْنا: يا رسولَ اللهِ عَلِّمْنا مما عَلَّمَك اللهُ عز وجل، فعَلَّمَنا التشَهُّدَ»[9].

فقد أعطي صلى الله عليه وسلم «فواتح الكلم» «أي البلاغة والفصاحة والتوصل إلى غوامض المعاني وبدائع الحكم ومحاسن العبارات التي أغلقت على غيره... (وجوامعه) التي جمعها الله فيه فكان كلامه جامعاً كالقرآن في كونه جامعاً فإنه خلقه، (وخواتمه) أي خواتم الكلام يعني حسن الوقف ورعاية الفواصل فكان يبدأ كلامه بأعذب لفظ

وأجزله وأفصحه وأوضحه ويختمه بما يشوق السامع إلى الإقبال على الاستماع مثله والحرص عليه»[10].

ولفظة «أعطيت» توحي بأن الله عز وجل منحه وميزه صلى الله عليه وسلم بهذه المزية، ولن يختار الله سبحانه وتعالى لنبيه إلا الكمال والعلو الذي تمثل في إحاطته التامة باللغة العربية وحسن فصاحته وبيانه.

قال القاضي عياض: «وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يجهل؛ سلاسةَ طبع وبراعةَ منزع وإيجازَ مقطع ونصاعةَ لفظ وجزالةَ قول وصحةَ معانٍ وقلةَ تكلُّف، أوتي

جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ويحاورها بلغتها ويباريها في منزع بلاغتها»[11].

وقال الرافعي واصفاً بلاغته صلى الله عليه وسلم : «إذا نظرت في ما صح نقله من كلام النبي صلى الله عليه وسلم على جهة الصناعتين اللغوية والبيانية، رأيته في الأولى مُسددَ اللفظ مُحكم الوضع جزل التركيب متناسِب الأجزاء في تأليف الكلمات... ورأيته في الثانية حسن المعرِض، بيِّن الجملة، واضحَ التفضيل، ظاهِرَ الحدود جيدَ الرصفِ، متمكن المعنى؛ واسع الحيلة في تصريفه، بديعَ الإشارة، غريب اللمحة، ناصع البيان»[12].

لذا فإن فهم السنة النبوية وإدرك كنهها ومراميها يحتاج - كما أسلفنا القول في القرآن - إلى تبحر وسعة علم باللغة العربية، وهو شرف وتكريم يضاف إلى ما سبق من تكريم وتشريف لهذه اللغة.

قال: الأصمعي «إن أخوف ما أخاف على طالب العلم، إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قول النبي صلى الله عليه وسلم : (مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)[13]؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يلحن، فمهما رويت عنه ولحنت فيه كذبت عليه»[14].

▪ فضـــل اللغــة العربية في آثار السلف

ولهذا الفضل والتكريم الذي حظيت به اللغة العربية في القرآن والســـنة عني الصحابة - رضي الله عنهم - والسَّلفُ من بعدهم بعلومِ اللغة العربية، وحثُّوا على تعلُّمِها، لفضـــلها وعلوِّ منزلتها، قـال ابن تيميـة: «ومـا زال الســـلف يكرهون تغيير شعائر العرب حتى في المعاملات وهو (التكلم بغير العربيـة) إلا لحـاجـة كمـا نص على ذلـك مـالـك والشـــافعي وأحمد بل قال مالك: من تكلم في مســـجدنا بغير العربية أخرج منه»[15].

ومن الآثار الواردة في عناية الصحابة بـاللغـة العربيـة مـا جـاء عن عمر بن

الخطاب - رضي الله عنه - قال: «تَعَلَّمُوا الْعَرَبِيَّةَ فَإِنَّهَا تُثَبِّتُ الْعَقْلَ، وَتَزِيدُ فِي الْمُرُوءَةِ»[16].

وَكَتَبَ إِلَى أَبِي مُوسَى الأشعري: «أَمَّا بَعْدُ فَتَفَقَّهُوا فِي السُّنَّةِ، وَتَفَقَّهُوا فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَأَعْرِبُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ»[17].

ومن فقه السلف أنهم كانوا يرون اللغة العربية من الدين، «فقد كان أبو عمرو بن العلاء يَعُدُّ العربية من الدين لا تنفصل عنه ولا ينفصل عنها، فبلغ ذلك عبد الله بن المبارك فقال: صدق»[18].

كما كانوا يرونها تؤثر تاثيراً بالغاً في العقل والخلق، قال ابن تيمية: «اعتياد

اللغة يؤثِّر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بَيِّناً، ويؤثِّر أيضاً في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق. وأيضاً فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرضٌ واجب؛ فإنَّ فَهْمَ الكتاب والسنة فرض، ولا يُفْهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب»[19].

ومنعوا غير العالم بالعربية المتقن لها من القول في الشريعة، قال الشاطبي: «فعلى الناظر في الشريعة والمتكلم فيها أصولاً وفروعاً... أن لا يتكلم في شيء من ذلك حتى يكون عربياً أو كالعربي في كونه عارفاً بلسان العرب، بالغاً فيه مبالغ العرب»[20].

ومن فقههم ورؤيتهم لمنزلة اللغة العربية وفضلها أن جعلوا كل العلوم مفتقراً إليها، قال ياقوت الحموي: «وحسبك من شرف هذا العلم أن كل علم على الإطلاق مفتقر إلى معرفته، محتاج إلى استعماله في محاورته، وصاحبه فغير مفتقر إلى غيره، وغير محتاج إلى الاعتضاد والاعتماد على سواه، فإن العلم إنما هو باللسان، فإذا كان اللسان معوجّاً متى يستقيم ما هو به؟»[21].

كما كان السلف ـ رضوان الله عليهم ـ يرون في اللغة العربية سبيلاً لرفعة الشأن وعلو المنزلة، وأن الجهل بها يحط من قدر الإنسان، قال ابن شبرمة: «إذا سرك أن تعظم في عين من كنت في عينه صغيراً، أو يصغر

في عينـك من كـان فيهـا كبيراً، فتعلم العربية فإنها تجـــــرئك على المنطق وتدنيك من السلطان قال الشاعر:

اللحن يُصلح من لسان الألكن

والمرء تعظِّمه إذا لم يلحن

ولحن الشريف محطة من قدره

فتراه يسقط من لحان الأعين

وترى الدني إذا تكلم معرباً

حاز النهاية باللسان المعلن

وإذا طلبت من العلوم أجلَّها

فأجلُّها منها مقيم الألسن[22]

أما كيف أثَّرت اللغة العربية في حياة السلف، فيقول الرافعي: «إذا اعتبرنا لغتهم رأينا حقيقة التمدن فيها متمثلة، وشروطه في مجموعها متحققة؛ فهي منهم بحر الحياة الذي انصبت فيه جميع العناصر... وكأنها هي التي كانت تهذب نفوسهم وتزنها، وتعدلها وتخلصها برقة أوضاعها وسمو تراكيبها، حتى ينشأ ناشئهم في نفسه على ما يرى من أوضاع الكمال في لغته؛ لأنه يتلقنها اعتياداً من أبوية وقومه، ولهيَ أقوم على تثقيفهم من المؤدب بأدبه، والمعلم بعلمه وكتبه؛ لأنها حركات نفسية على مدارها انجذاب الطبع فيهم»[23].

وأجمل ما نختم به ما ذكره الرافعي: «إن هذه العربية بنيت على أصل

سحري يجعل شبابها خالداً عليها فلا تهرم ولا تموت، لأنها أعدت من الأزل فَلكاً دائِراً للنيِّرين الأرضيين العظيمين (كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم)، ومِن ثَمَّ كانت فيها قوة عجيبة من الاستهواء كأنها أخذة السحر»[24].

---

[1] صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، دار الكتب العلمية، بيروت، (184/1).

[2] سبل استنباط المعاني، محمود توفيق محمد سعد، مكتبة وهبة، 1432هـ - 2011م، (ص88).

[3] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، مؤسسة الرسالة، 1420هـ - 2000م، (ص393).

[4] تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، دار طيبة للنشر والتوزيع، السعودية، ط2، 1420هـ - 1999م، (365/4).

[5] في شرف العربية، إبراهيم السامرائي، كتاب الأمة، ع: 42، مركز البحوث والدراسات، بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، (ص6 - 7).

[6] المزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية - بيروت، 1418هـ 1998م، (261/2)،.

[7] اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط7، 1419هـ - 1999م، (449/1 - 450).

[8] أخرجه أحمد في مسنده، (ح:6606)، حسن إسناده أحمد شاكر في تخريج المسند، وضعفه الألباني في إرواء الغليل، والأرنؤوط في تخريج المسند.

[9] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان،(ح: 1438)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

[10] فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الـدين محمـد ، المكتبـة التجـاريـة الكبرى - مصر، 1356هـ، (565/1).

[11] الشـفا بتعريف حقوق المصـطفى، القاضـــي عياض بن موســى اليحصـــبي، دار الفكر الطبـاعـة والنشـــر والتوزيع، 1409هـ - 1988م، (70/1).

[12] إعجـاز القرآن والبلاغـة النبويـة، مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمـد بن عبـد القـادر الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط8، 1425هـ - 2005م، (ص221).

[13] متفق عليـه، أخرجـه البخـاري (ح: 107)، ومسلم (ح: 3).

[14] مقدمـة ابن الصـــلاح، تقي الـدين المعروف بـابن الصـــلاح، دار الفكر-

سوريا، دار الفكر المعاصر - بيروت، 1406هـ - 1986م، (ص 217).

[15] مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، السعودية، 1416هـ/1995م، (2500/32).

[16] شعب الإيمان، أبو بكر البيهقي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، 1423هـ - 2003م، (ح:1555)، (210/3).

[17] الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، مكتبة الرشد، الرياض، 1409هـ، (ح: 29914)، (116/6).

[18] معجم الأدباء، أبو عبد الله ياقوت الحموي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1414هـ - 1993م، (10/1).

[19] اقتضاء الصراط المستقيم، مرجع سابق، (527/1).

[20] الاعتصام، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشهير بالشاطبي، دار ابن عفان، السعودية، 1412هـ - 1992م، (809/2).

[21] معجم الأدباء، مرجع سابق، (10/1).

[22] الآداب الشرعية والمنح المرعية، محمد بن مفلح، عالم الكتب، (129/2).

[23] تـاريخ آداب العرب، مصـــطفى صـــادق الرافعي، دار الكتـاب العربي، (141/1).

[24] تحت راية القرآن، مصطفى صادق الرافعي، المكتبة العصـــرية - صـــيدا - بيروت، 1423هـ - 2002م، (ص26).

أقوال مأثورة
في شرف العربية

محمد بلاسي[2]

إن لغة اصـــطفاها الله تعالى من بين اللغـات جميعًـا لتكون وعـاءً لكتـابـه الخالد «القرآن الكريم»؛ لا شـــك لغة تتربع على عرش الألســـنة واللغات؛ ذلك لأن لها من الخصائص والميزات ما تستحق به هذا الاصطفاء.

وتلـك مفخرة لنـا نحن العرب، غبطنـا عليها أهل الفكر والثقافات، شـــرقيون أو غربيون.

يقول المستشرق الفرنسي ماسينيون: «باســـتطـاعـة العرب أن يفـاخروا

[2] كاتب لمجة البيان

غيرهم من الأمم بما في أيديهم من جوامع الكلم التي تحمل من سمو الفكر وأمارات الفتوة والمروءة ما لا مثيل له!»[1].

هذا؛ ونظرًا لأن اللغة العربية قد حملت آخر رسالات السماء إلى الأرض وأريد لها أن تكون لسان الوحي، وقدر لها أن تستوعب دليل نبوة الإسلام، واختزال مضامين الرسالات السابقة، والانطواء على المنهج الذي ارتضاه الله لخلقه إلى يوم الدين[2]؛ نظرًا لهذا «فقد كانت دراسة اللغة العربية عند الأقدمين مرتبطة بالعامل الديني، ونتيجة لهذا الارتباط الوثيق فقد خلفت لنا العصور الأدبية على امتداد التاريخ اهتمامًا كبيرًا بلغة القرآن الكريم سواء فيما

يتصل برصد مروياتها من الآثار الأدبية من شعر ونثر، أو فيما يتصل بإحصاء مفرداتها، وتسجيل أوابدها وغرائبها في المعجمات والقواميس اللغوية، أو فيما يتصل باستنباط القواعد والأسس التي تعنى بسلامتها، والمحافظة على أصولها الموروثة، ووضع الدراسات اللغوية الخاصة باكتناه أسرارها، والكشف عن خصائصها ومميزاتها»**[3]**.

ويقرر هذا أبو منصور الثعالبي (ت 429هـ) إذ يقول: «من أحب الله - تعالى - أحب رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم

والعرب، ومن أحب العربية عني بها، وثابر عليها، وصرف همته إليها، ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان، وآتاه حسن سريرة فيه؛ اعتقد أن محمدًا صلى الله عليه وسلم خير الرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة؛ إذ هي أداة العلم، ومفتاح الثقة في الدين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد.

ثم هي لإحراز الفضائل، والاحتواء على المروءة، وسائر أنواع المناقب كالينبوع للماء والزند للضارب، ولو لم يكن في الإحاطة بخصائصها، والوقوف على مجاريها ومصارفها، والتبحر في جلائلها ودقائقها إلا قوة

اليقين في معرفة إعجاز القرآن، وزيادة التبصر في إثبات النبوة التي هي عمدة الإيمان لكفى بهما فضلًا، يحسن فيهما أثره، ويطيب في الدارين ثمره»[4].

ويقول الإمام الشافعي (ت 204هـ): «فإذا كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض، فلا بد أن يكون بعضهم تبعًا لبعض، وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع. وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي. ولا يجوز - والله أعلم - أن يكون أهل لسانه أتباعًا لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد»[5].

وها هو ذا ابن قتيبة (ت 276هـ) يقول: «وإنما يعرف فضل القرآن من

كثر نظره واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات. فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة، والبيان، واتساع المجال ما أوتيته العرب خصيصى من الله لما أرهصه الله في الرسول صلى الله عليه وسلم وأراده من إقامة الدليل على نبوته بالكتاب» [6].

ويقول الزجاجي (ت 337هـ): «وأمّا اللغة - وهي العربية - التي فضل الله عز وجل بها العرب، وأنطقهم بها فهي لغتهم. كما أنّ لكل قوم لغة يتكلمون بها» [7].

ويروى عن الزجاج (ت 311هـ) أنه سمع أبا العباس المبرد يقول: «كان بعض السلف يقول: عليكم بالعربية فإنها المروءة الظاهرة، وهي كلام الله - عز وجل - وأنبيائه وملائكته»[8].

وفي ديوان الأدب عدّد الفارابي (ت 350هـ) فضل الله على النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم بكل فاضل ونفيس من زمان، وبلد، وأصحاب، واسم، وخلق، وسمت، ونسب، ولسان...؛ فقال: «أما اللسان فهو كلام جيران الله في دار الخلد، وهو المنزه من بين الألسنة من كل نقيصة، والمعلى على كل خسيسة، والمهذب مما يهجن أو يستشنع، فَبُنِيَ مباني باين بها جميع اللغات»[9].

هذا؛ ويعدّ القول بتفضيل ابن جني (ت 392هـ) للغة العربية من قبل تحصيل الحاصل إزاء افتتانه بإحكام العربية وسحر أسرارها افتتانًا هزّه عن مذهب المعتزلة في القول بأن اللغة اصطلاحية - وقد كان منهم - ليقول: «إنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة؛ وجدت فيها من الحكمة والدقة، والإرهاف والرقة، ما يملك عليّ جوانب الفكر، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر.

فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا رحمهم الله ومنه ما حذوته على أمثلتهم، فعرفت بتتابعه وانقياده، وبعد مراميه وآماده، صحة ما وفقوا لتقديمه منه، ولطف ما أسعدوا به وفرق لهم عنه، وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار

المأثورة بأنها من عند الله عز وجل؛ فقوي في نفسي كونها توقيفًا من الله سبحانه، وأنها وحي»[10].

ويقول العلامة السرقسطي (المتوفى بين 403 و410 تقريبًا): «إن أشرف ما عني به الطالب بعد كتاب الله عز وجل لغات العرب وآدابها، وطرائف حكمها؛ لأنّ الله تبارك وتعالى اختارها بين اللغات لخير عترة، وأشرف أمة، ثم جعلها لغة أهل دار المقامة في جواره ومحل كرامته. فهي أفصح اللغات لسانًا، وأوضحها بيانًا، وأقومها مناهج، وأثقفها أبنية، وأحسنها بحسن الاختصار تألفًا، وأكثرها بقياس أهلها تصرفًا»[11].

وفي مقدمة كتاب الفائق للإمام الزمخشري (ت 538هـ)، يقول: «الحمد لله الذي فتق لسان الذبيح، بالعربية المبينة والخطاب الفصيح، وتولاه بأثرة التقدم في النطق باللغة التي هي أفصح اللغات، وجعله أبا عذر البلاغة التي هي أتم البلاغات»**[12]**.

وبعد؛ فهذا غيض من فيض مما أشاد به أئمتنا الأجلاء؛ إدراكًا منهم لمكانة اللغة العربية وأهميتها بالنسبة لفهم الدين.

ولا عجب؛ فالعربية ـ كما قلنا ـ ليست كأية لغة من اللغات الأخرى؛ بل هي فريدة من نوعها؛ اصطفاها الله من بين اللغات جميعًا لتكون وعاء لكتابه

الخالد «القرآن الكريم» كما اختارها لتكون لسان نبيه الأمين؛ لذا أوجب الشارع الحكيم تعلمها حتى تُفهم مقاصد الكتاب والسنة.

يقول الإمام الشافعي - رحمه الله -: «فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك»[13].

في الوقت الذي أرجع فيه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - الخلط في الدين عند أهل البدع إلى قلة فهم اللغة العربية؛ فيقول: «لا بد في تفسير القرآن والحديث من أنْ يعرف ما يدل

على مراد الله ورسوله من الألفاظ وكيف يفهم كلامه. ومعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أنْ نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك ضلال أهل البدع كان لهذا السبب؛ فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دال عليه ولا يكون الأمر كذلك»[14].

وأوجب شيخ الإسلام ابن تيمية على المسلم تعلم اللغة، فقال: «إن معرفة اللغة من الدين، ومعرفتها فرض واجب، وإن فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[15].

والإمام الشافعي - رحمه الله - في وضعه للأصول المعتمدة في فهم

النصوص وتأويلها اعتمد منطق اللغة العربية.. وقد أورد السيوطي (ت 911هـ) قول حرملة بن يحيى: «سمعت الشافعي يقول: «ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطوطاليس... ولم ينزل القرآن ولا أتت السنة إلى على مصطلح العرب ومذاهبهم في المحاورة والتخاطب والاحتجاج والاستدلال لا على مصطلح اليونان، ولكل قوم لغة واصطلاح»[16].

:: مجلة البيان العدد 334 جمادى الآخرة 1436هـ، مارس – إبريل 2015م.

---

[1] من مقال للمستشرق الفرنسي لويس ماسينيون، بعنوان: مقام الثقافة العربية بالنسبة إلى المدنية العالمية. نشرته له جريدة: «الأهرام» القاهرية، عدد 1949/1/26م.

[2] العلم بالعربية.. ضرورة عقيدية، للدكتور عباس أرحيلة، ص82 بتصرف يسير، (مقال منشور بمجلة: منار الإسلام، عدد محرم 1415هـ).

[3] مقالات وآراء في اللغة العربية، للدكتور حمد بن ناصر الدخيل،

ص54-53، الطبعة الأولى، دار الشبل بالرياض، 1415هـ.

[4] فقه اللغة وسر العربية: للثعالبي، (المقدمة)، بتحقيق السقا وآخرين، ط. الحلبي، سنة 1392هـ.

[5] الرسالة: للإمام الشافعي، ص46، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، ط. مصطفى البابي الحلبي، القاهرة 1940م.

[6] تأويل مشكل القرآن: لابن قتيبة، ص12، تحقيق السيد أحمد صقر، الطبعة الثانية، دار التراث، 1393هـ.

[7] الإيضاح في علل النحو: للزجاجي، ص91، تحقيق د. مازن المبارك، ط4، دار النفائس ببيروت، 1402هـ.

[8] المصدر السابق، ص95.

[9] ديوان الأدب: للفارابي، 1/ 70، تحقيق د. أحمد مختار عمر، الطبعة الأولى ـــــ مجمع اللغة العربية بالقاهرة، سنة 1398هـ.

[10] خصائص اللغة العربية.. تفصيل وتحقيق: د. محمد حسن حسن جبل، ص 33، ط. دار الفكر العربي، د. ت. ويراجع؛ الخصائص: لابن جنّي، تحقيق الشيخ محمد علي النجار، 1/ 70 وما بعدها، ط. دار الكتب المصرية، نشر دار الكتاب العربي.

[11] الأفعال: لأبي عثمان سعيد بن محمد السرقسطي، تحقيق: د. حسين محمد شرف، 1/ 51، ط. مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1395هـ.

[12] الفائق في غريب الحديث: للعلامة الزمخشـــري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضـــــل إبراهيم، (11/1)، الطبعة الثانية - عيســـى البابي الحلبي، د. ت.

[13] الرسالة: للإمام الشافعي، ص42.

[14] الإيمان: لابن تيمية، ص111.

[15] اقتضــاء الصــراط المســتقيم: لابن تيمية، ص207.

[16] العلم بالعربية.. ضـــرورة عقيدية: للدكتور عباس أرحيلة، ص87. وانظر؛ صـــون الكلام عن فن المنطق والكلام: للسيوطي، شرح وتعليق الدكتور ســامي الشــار، ص45، الطبعة الأولى - السعادة، سنة 1947م.

ماذا قالوا

يقول الإمام الشـــافعي (رحمه الله):
«فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشـهد به أن لا إلـه إلا الله وأن محمـدًا عبـده ورسـوله ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وأمر به من التسـبيح والتشـهد وغير ذلك»

وأوجب شـــيخ الإســـلام ابن تيمية على المسـلم تعلم اللغة، فقال: «إن معرفـة اللغـة من الـدين، ومعرفتهـا فرض واجــب، وإن فـهـم الكتــاب والســـنـة فرض ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»